البكاء عند رؤية الكعبة

كثير من الناس يقول لك: أنا حين أدخل البيت أو أطوف تنتابني حالة من البكاء لا أعرف لها سبباً، فإذا سألته لماذا تبكى؟ لا يجيبك بشيء، البكاء هذا غسولٌ لكبرياء ماضيه، فيأتي أمام هذه الكعبة التي هي مبنية من هذه الأحجار وفيها الحجر الأسود فيظل يبكي. وهذا البكاء هو مظهرية الضعف ومظهرية الحُزْن.

لأن الإنسان بفطرته التكوينية أدرك أنه كان يوجد تعاليات متعدِّدة. التعاليات كلها ذهبت، ولكنها أتت من العقل الباطن، وهو لا يشعر بها، ولكنه عندما يبكي، ويظل يحكي أنه بكى بشيء من الفرحة؛ فهذا دليل على أن البكاء صنع معه توازناً كيماوياً في ذاته، كمية الكبرياء التي كانت عنده مُخلية توازن انتهت، فيرتاح.

إذن.. فكل تكوين من التكوينات يتأبى على نفسه إن كان على غير ما أراد اللَّه وشرعه.

فعندما يبكي على قدر ما أسرف، وعلى قدر ما أتى وعلى قدر ما خالف، فيجد نفسه ارتاحت، ثم يشتاق إلى ما يبكيه، ويتمنى أن يأتي مرَّة ثانية ويبكي كما بكى المرة الأولى.

ولذلك لا يبكي كل مرة مثل الأولى، في المرة الأولى يبكي بحرارة شديدة، أما التي بعدها فيبكي أقل، والتي بعدها أقل، حتى يأتي عنده استطراق صفائي ويجد نفسه وذرَّاته وتكويناته اعتدلت في ذاتها، وما دامت ذراته اعتدلت في ذاتها فقد أصبح إنساناً سوياً، وما دام أصبح إنساناً سَوِيًّا فقد أصبح راضياً[١].

---

(١) ورد في السنَّة المشرفة على صاحبها صلاة اللَّه تعالى وسلامه عند دخول مكة ورؤية الكعبة ودخول المَسجد الحرام ما يلي:

أولاً: عند دخول مكة المكرمة: «اللَّه أكبرُ، اللَّهم أنت السَّلامُ، ومنك السلام، فحيِّنا رَبَّنا بالسلام. اللَّهم زِد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبرّاً، وزد مَن حَجَّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً»[١].

=

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى [٨٩٩٥] وابن أبي شيبة في مصنفه [٢٩٦٢٤] عن مكحول رضي اللَّه عنه.

ثم إننا نلاحظ أن الناس جميعاً في هذا المقام ـ وهم لا يزالون في الدنيا ـ كل واحد حول الكعبة مشغول بأن يستحضر: بماذا يدعو، ماذا يقول، كيف يمشي وقد أصبح مذهولاً عمن حوله، يعني أنه لم يعد مشغولاً بالخلق؛ لأنه في بيت الخالق، وما دام في بيت الخالق فهؤلاء الناس لم يعودوا يشغلوا باله، ولذلك تجد الناس يقولون: يا أخي النساء والرجال يختلطون في الحج والزحام كذا وكذا!!

وهل يشعر أحد بشيء، فإنك رُبَّما تطوف والمرأة الأجنبية في كتفك وأنت لا تدري من بجوارك.

فإذا كان هذا ولا نزال في الدنيا، وكل واحد مشغول بنفسه؛ ولذلك السيدة عائشة رضي اللَّه تعالى عنها لما أخبرها رسول اللَّه ﷺ إننا سنُحْشَر عراة قالت: يا رسول اللَّه: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض وهم عرايا؟!

= اللَّهم إن هذا البلد بَلدُك، والبيت بيتُك، جئت أطلب رحمتَك وأؤُمُّ ـ وأقصد ـ طاعتَك، مُتبعاً لأمرك، راضياً بقدرك، مُبلِّغاً لأمرك، أسألك مسألة المُضطر إليك، المُشفق من عذابك أن تتقبلني وأن تتجاوز عني برحمتك، وأن تدخلني جنتك[١].

ثانياً: عند رؤية البيت الحرام: اللَّهم زِد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من شَرفه وكرمه، ومن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً[٢].

ثالثاً: عند دخول المسجد الحرام يدخل برجله اليمنى ويقول: بسم اللَّه، والحمد للَّه، اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللَّهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك[٣].

رابعاً: عند رؤية الكعبة المشرفة تقول مشيراً إليها بيدك اليمنى: اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، لا إله إلا اللَّه، لا إله إلا اللَّه، لا إله إلا اللَّه: اللَّهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة[٤]. اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، حينا ربنا بالسلام، اللَّهم إني أعوذ برب البيت من الكفر والفقر، ومن ضيق الصدر، ومن عذاب القبر. اللَّهم إني أسألك رضاك والجنّة، وأعوذ بك من سخطك والنار. اللَّهم أدخلني الجنّة بلا سابقة عذاب، ولا مناقشة حساب، وحاسبني يا رب حساباً يسيراً بعفوك وكرمك وإحسانك، أستغفر اللَّه، أستغفر اللَّه =

---

(١) ذكره صاحب شرح المهذب؛ ونقله في الدين الخالص.

(٢) رواه الشافعي في مسنده [٥٨٥] عن ابن جريج رضي اللَّه تعالى عنه.

(٣) رواه ابن ماجه [٧٧٣] عن فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ بلفظ: كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل المسجد يقول: «بسم اللَّه والسلام على رسول اللَّه، اللَّهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك». والترمذي [٣١٤]، وأحمد في المسند [٦/ ٢٨٣] وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره دون قوله: «اللَّهم اغفر لي ذنوبي» فحسن.

(٤) سبق تخريجه.

فقال: الأمر أكبر من أن يهمهم هذا، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه[١].
فكذلك نرى هذه الصورة في الحج.

obeikandl.com

= العظيم وأتوب إليه، اللَّهم صل على النبي محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليماً كثيراً.

(١) رواه البخاري [٦٥٢٧] بلفظ: قال رسول اللَّه ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلا.
قالت عائشة: فقلت: يا رسول اللَّه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك».
ومسلم [٢٨٥٩/ ٥٦] والنسائي [٢٠٨٣/ ٢٠٨٤] وابن ماجه [٤٢٧٦] وأحمد في المسند [٦/ ٥٣] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها.

سر الاتجاه للكعبة

الإنسان منا حين يكون في بلده يتَّجه في صلاته إلى الكعبة اتجاهاً مضبوطاً، يعني: نتجه شرق، نتَّجه شرق، نتجه غرب، نتجه غرب حسب موقعنا من البيت، فمثلاً الذي في القسم الشرقي يتجه للغرب، والذي في القسم الغربي يتجه للشرق، والذي في القسم الشمالي من الكعبة يتجه للجنوب، والذي في القسم الجنوبي يتجه للشمال، والذي في الجهات الفرعية يتجه بحسب جهته.

إذن.. فلكل مكان في الأرض مُتَّجَهٌ ثابت، القبلة التي نصلي لها هنا هي القبلة كل يوم لا تتغير.

إذن.. لماذا في سيالي الكعبة اتجاه وخط؟ لأنني غائب مقيمٌ وبعيد عنها.

إذن.. فاتجاهي هنا، والمقابل لي في ظاهره اتجاهه غير اتجاهي؛ لأنني متجه شمالاً، وهو متجه جنوباً، وهذا متجه شرقاً وهذا متجه غرباً.

وحتى يتأكد هذا، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ١١٥] يعني: إياك أن تعتقد يا من تتجه إلى الشرق أن الله في الشرق، وإياك أن تعتقد يا من تتجه إلى الغرب أن الله في الغرب.

لا.. كل مكان فيه متجه، فإذا ما كنت غريباً كان لك متجه فأنا أتجه مثلاً ناحية الركن اليماني، وآخر يتجه ناحية الركن العراقي، وثالث يتجه ناحية الركن الشامي. فإذا ما ذهبنا هناك إلى أي متجه نتجه؟

نحن كنا نتجه في الغيب للمكان الذي يؤدي بنا بخط معتدل إلى الكعبة.

فإذا ذهبت أنا هناك. أتجه إلى المكان الذي كنت أتجه إليه في بلدي؟ لا..

obeikandl.com

أصبحت الكعبة كلها لك متجهاً، فلا بد أن تعظم كل مكان في الكعبة، تعظم هذا، وتعظم هذا، وتعظم هذا... لا تعظيم المكان الذي كنت تتجه إليه في بلدك فقط، لا. إذن.. فلا بد أن تطوف[١].

(١) ولذلك تحية المسجد الحرام ليس بصلاة ركعتين كبقية المساجد؛ إنما هي بالطواف حول البيت سبعة أشواط؛ وسيأتي دليل ذلك إن شاء اللَّه تعالى في الطواف.

obeikandl.com

من أسرار الطواف.. ولماذا سبعاً؟

قالوا: في الطواف كان يكفي أن يكون مرة، حتى يحقق هذا المعنى، وأنك حين أصبحت في الكعبة مشاهداً لها، فكل مكان فيها يجب أن تعظمه.

وقالوا: إن الكعبة على سَمْت البيت المعمور. يعني: أنه فوقها، فكأن جو الكعبة هذا يصير في الجو إلى أن ينتهي إلى البيت المعمور.

فالذين يصلون في الدور الثالث من الكعبة «في الحرم» يتجهون بوجوههم إلى أي شيء؟

هل ينظر المصلي إلى أسفل لينظر إلى الكعبة التي هي أسفل منه؟

أم ينظر أمامه أيضاً؟ بالطبع ينظر أمامه في محل سجوده.

وإلى أي شيء يتجه والكعبة ارتفاعها لا يتجاوز عدة أمتار، فهي لا تحاذي حتى الدور الأول فضلاً عن الثاني والثالث؟

قالوا: يتجه إلى جوِّها. وكذلك من هو أعلى من ذلك يتجه إلى جوِّها، فمن يصلي في الطائرة أيضاً يتجه إلى جوِّها، والذي يركب الصاروخ أيضاً يتجه إلى جوِّها.

إذن.. جوها بداية من أول مقامها في الأرض إلى أن تلتقي بالبيت المعمور.

فكل طواف تطوفه حول البيت يُمثِّل مصعداً ومعراجاً من معارج السماء، حتى إذا ما قضيت السبعة أشواط كأنك عرجت إلى السبع سماوات، ولكن بشرط أن يكون بالصفاء الإشراقي.

فإذا ما جئت وذهبت لتصلي ركعتين بعد الطواف مثلاً فمن الناس من يقول: نصليها عند مقام إبراهيم، ومقام إبراهيم بعيد عن الكعبة بمقدار خمسة أمتار.

obeikandi.com

أول بيت وضع للناس

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، إن بعض الناس يظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى البيت. ولمثل هذا القائل نرد: لنفهم القرآن معاً. إن مثل هذا القول يناقض القرآن؛ لأن القرآن قد قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وهذا يوضح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له.

إذن.. فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت، وكذلك للناس من بعد إبراهيم[١].

---

(١) عن أبي ذرّ رضي اللَّه تعالى عنه قال: قلت: يا رسول اللَّه أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلِّه، فإن الفضل فيه».
رواه البخاري [٣٣٦٦، ٣٤٢٥] واللفظ له، ومسلم [٥٢٠/١]، وابن ماجه [٧٥٣]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٤٤]، وأحمد في المسند [٥/ ١٥٠].
وعن خالد بن عرعرة قال: سأل رجل علياً رضي اللَّه تعالى عنه عن ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] هو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى، ومقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بناؤه. «إن اللَّه تبارك وتعالى، أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق به ذرعاً، فأرسل اللَّه عز وجل إليه السكينة، وهي ريح خجوج لها رأس، فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان يبني هو ساقاً كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجراً فالتمس ثَمَّ حجراً حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال: جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل عليه السلام، من السماء فأتمه. قال: فمر عليه الدهر، فانهدم، فبنته العمالقة، قال: فمر عليه الدهر، فانهدم، فبنته جرهم، فمر عليه الدهر، فبنته قريش، ورسول اللَّه ﷺ، يومئذ رجل شاب، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه، فقالوا نُحَكِّمُ بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول اللَّه ﷺ أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط، ثم ترفعه جميع القبائل كلهم». وقوله: خجوج: شديدة.
رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٢٩٣]، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه ابن جرير في التفسير [٣/ ٦٩، ٧١]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٥٥، ٥٦]، والأزرقي في تاريخ مكة [١/ ٢٤، ٢٥]، وزاد السيوطي عزوه في الدر [١/ ١٢٦] لابن أبي شيبة وإسحاق بن =

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم عليه السلام لهم نفس الحقوق عند اللَّه التي وضعها لمن بعد إبراهيم؛ لذلك فلا بد أن اللَّه قد جعل بيته لهم، والنص القرآني: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وما دام قد جاء الفعل مبنياً للمجهول فواضعه غير الناس. هل هم الملائكة؟ قد يصح ذلك، وأن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من اللَّه بمزاولة هذا البناء، لكن قول الحق: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذا البيت أيضاً هدى للملائكة لأنهم عالم، وهذا يعني أن البيت قد وضعه اللَّه من قبل ذلك، ولا أحد يقدر أن يصنع الكون على قدر العقل البشري.

إن على العقل البشري أن يكون في ركاب الكون، وإياك أن تجعل أيها المؤمن الكون في ركاب عقلك، أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة فهذا عدم فهم للنص القرآني: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧] ما هو الرفع؟ في الآية إيجاد بعد الارتفاع، فأين الطول والعرض؟ إن وجود الطول والعرض سابقان للارتفاع دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت.

إذن.. فالذي كان مطموساً هو القواعد والإرتفاع، إن وجود الطول والعرض هو الذي يحدد المكان، أما البنية فهي التي تحدد «المكين» وعندما انهدم البيت الحرام، كان الناس يتجهون إلى نفس المكان، وعندما نصلي نحن في الطابق الثالث في الحرم فإننا نتجه إلى الهواء الموجود فوق الكعبة، ولو حفرنا نفقاً تحت الأرض بألف متر، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى أساس الكعبة. إذن فجو الكعبة «كعبة» فعمل إبراهيم عليه السلام كان في إيجاد المكين لا المكان، لقد رفع البيت.

ولتقرأ بالفهم الإيماني ما حدث لإبراهيم عليه السلام، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل وخرج بها ليضعهما في هذا المكان، فماذا قالت هاجر لزوجها: هل

= راهويه في مسنده وعبد بن حميد، والحارث بن أبي أسامة وابن أبي حاتم.
وقال الحافظ ابن حجر رحمه اللَّه في فتح الباري [٧/ ٦٢]: أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم، وغيرهما بإسناد صحيح.
وعن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنه قال: «جاء إبراهيم عليه السلام فوجد إسماعيل يصلح له بيتاً من وراء زمزم فقال له إبراهيم: يا إسماعيل إن ربك قد أمرني ببناء البيت، فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، قال: فأعنّي عليه، قال: فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة]. رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٥٥٢]، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي وله شواهد من الأحاديث التي قبله.

أنزلك اللّه هذا المكان أم أنه من اختيارك؟ إنها تعرف أن مكونات الحياة هي المياه والهواء والقوت، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه؛ لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم: كيف تتركنا هنا؟ وهل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من اللّه؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام: إنه توجيه من اللّه. لذلك قالت: لقد اطمأننت واللّه لا يضيعنا أبداً، إنه الإيمان العالي؛ لذلك لم تقلق هاجر؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره اللّه.

هكذا نرى الإيمان في قمته، ولو لم يكنّ الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأي قلب لأم تترك الزوج يذهب بعيداً عنها ويترك ابنها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو ماء، إنها لا تؤمن بإبراهيم، ولكنها تؤمن برب إبراهيم.

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد قول الحق سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم]. هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت محرم، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة] هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمٰن إبراهيم عليهما السلام في إقامة قواعد البيت الحرام، لكن عندما كان إسماعيل طفلاً فقد أسكنه والده إبراهيم عند البيت الحرام.

هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجوداً من قبل إبراهيم عليه السلام، وعندما ندقق النظر في معنى كلمة: «بكة» التي وردت في هذا القول الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ [آل عمران: ٩٦]، ونحن نعرف أن هناك اسماً لمكان البيت الحرام هو: «بكة» وهناك اسماً آخر هو: «مكة»، وبعض العلماء يقول: إن «الميم» و«الباء» يتعاونان، ونلحظ ذلك في الإنسان الأخنف أو المصاب بزكام أنه ينطق «الميم» كأنها «باء» و«الميم والباء» حرفان قريبان من طريق النطق والألفاظ منها تأتي مع بعضها.

ولننظر إلى اشتقاق «مكة» واشتقاق «بكة»، إننا نقرأ «بك المكان» أي: ازدحم المكان، وهكذا نعرف أن قول الحق: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ أي: أنه المكان الذي ازدحم، وهو مكان الازدحام الذي يأتي إليه كل الناس وكل الوفود؛ لتحج بيت اللّه الحرام، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلطون بعضهم ببعض، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ولا يدري أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف. و«بكة» هي المكان الذي فيه الطواف والكعبة.

و«مكة» هو اسم مكان البيت الحرام، إن «بكة» هو اسم مكان البيت الحرام، و«مكة» اسم البلد الذي يوجد به البيت الحرام، و«مكة» مأخوذة من «مك الفصيل الضرع» أي: امتص كل ما فيه من لبن، والفصيل ـ كما نعرف ـ هو صغير الإبل أو صغير البقر، وما دام الفصيل قد امتص كل ما في الضرع من لبن، فمعنى هذا أنه جائع وكما نعرف أن مكة ليس فيها مياه والناس تكاد أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها[١].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ وفي كلمة «مباركاً» نجدها مأخوذة من «الباء والراء والكاف» والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات. و«الثبات» هل هو الثبات الجامد أو الثبات المعطى النامي الذي مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضاً؟ ونحن في حياتنا العادية نقول: إن هذا المال فيه بركة مهما صرفت منه فإنه لا ينتهي. أي: أنه ثابت لا يضيع ويعطي ولا ينفد، وكلمة «بِرْكَة» في حياتنا تعني: تجمعٌ من الماء نأخذ منه بعض الماء، ولكن الماء يأتي إليها مرة أخرى، وكلمة: «تبارك اللَّه» تعني «ثبت الحق» ولم يزل أزلاً ولا يزال هو واحد إنه الثبوت المطلق، وهكذا نجد أن الثبات في معنى البيت الحرام، إن البيت الحرام مبارك، وإذا سأل أحد كيف؟ نرد على هذا القائل: أليست تضاعف فيه الحسنة[٢]؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع، فقد كان الراحل إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن، ويأخذ الإبرة والخيط، والملح، والآن فإن الزائر لبيت اللَّه الحرام يأتي بكماليات الحياة من هناك.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ ما هو الهدى؟ قلنا: إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية؛ ومن يزر البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[٣]، فهل اهتدى للجنة أم لا؟. إنه يعرف بحج البيت الحرام الطريق إلى

---

(١) بكة: بالباء هي مكة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ سميت بكة؛ لأنها تبك أعناق من يعتدي عليها، كما سميت «القاهرة» لأنها تقهر من يعتدي عليها، أو سميت «بكة» لأنها تبك أعناق الأنعام التي تذبح ضحايا وهَدْياً للكعبة، من بكَّ الشيء: هشمه ومزقه أو من بكة: أي زحمة، وتباكَّ الناس تزاحموا؛ لأن الناس يتزاحمون فيها. وقيل: مكة سائر البلد، وبكة: مكان البيت.

[القاموس القويم للقرآن الكريم].

(٢) عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». رواه البخاري [١١٩٠].

(٣) عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث =

الجنة، وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن البيت، لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه مع أن فيه آيات كثيرة، قال الحق: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]، إننا نجد صيغة الجمع موجودة في قول الحق: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، وبينات هي وصف الجمع، وبعد ذلك قال الحق: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تدل على الآيات البينات، وقد يقول قائل: أليس في المقدور أن نضيف الأمان الممنوح لمن دخل البيت مع مقام إبراهيم؛ لتكون هذه هي الآيات الموجودة في البيت الحرام؟ لكن الآيات في البيت الحرام أكثر من هذا بكثير؛ بل إننا عندما نرى مقام إبراهيم نجد فيه الآيات البينات، ونحن نقرأ: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بفتح الميم الأولى في كلمة: «مقام» ولا ننطقها «مُقام» بضم الميم الأولى؛ لأن «المُقام» بضم الميم تعني مكان إقامة إبراهيم، أما «مَقام» بفتح الميم فهي مكان القيام.

لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام؟ لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام، وكان إبراهيم يقوم على «حجر» وعندما تنظر إلى ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فإنك تجد فيه كل الآيات الدينية لماذا؟ لأن اللَّه طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذي يؤديه طول يديه وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب اللَّه، لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع اللَّه أن يؤدي كل تكليفات اللَّه بحب وإكمال وإتمام، لذلك تساءل إبراهيم عليه السلام، ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداي؟ ولم تكن هناك في ذلك الزمن القديم فكرة «السقّالات» ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا إسماعيل، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجراً ووقف عليه، وعندما يأتي إبراهيم بحجر يضعه تحت قدميه ليقف عليه، فإنه يرفع القواعد قدر الحجر.

إذن.. فإبراهيم خليل الرحمٰن أراد أن ينفذ أمر اللَّه بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية له، ولكن بقدر الاستطاعة البدنية وبقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه اللَّه، وهذا يوضح لنا معنى ما يقوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة] أي: أنه أدى مطلوب اللَّه أداءً كاملاً، ولا أدلَّ على الأداء من أنه أخذ الحجارة وأتى بحجر منها ليقف عليه وليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا

= ولم يفسق رجع كما ولدته أمه». وفي رواية: «كيوم ولدته أمه». رواه البخاري [١٨١٩، ١٨٢٠].

الحجر، نحن نعرف أن إسماعيل قد شارك في رفع القواعد للبيت الحرام، وعندما ننظر إلى الحجر نجده لا يسع إلا وقوف إنسان واحد عليه، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار.

أما مكان الأقدام الموجودة في هذا الحجر فهذا يعني أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجراً من المفروض أن يحمله اثنان كان لا بد من ثبات القدمين في مكان آمن، وكان إسماعيل يساعد فقط في نقل الأحجار وكان إبراهيم هو الذي يحمل الحجر، وعندما يحمل إبراهيم وزناً لا يحمله إلا اثنان ويقف ليرفعه فلعله خاف أن يقع من على الحجر، فهل يا ترى أن اللَّه سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة أن رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله: سأكفيك مؤونة ذلك، وجعل الحق القدمين تغوصان في الحجر غوصاً يسندها إن هي زلت، والذي لا يتسع ذهنه إلى أن اللَّه ألان لإبراهيم الحجر، نقول له: إن إبراهيم قد احتال وخاف أن ينزلق أو تزل قدمه من على الحجر فنحت مكاناً في الحجر على قدر قدمه، وحتى يثبت قدمه في الحجر وحتى يستطيع أن يحمل ويرفع الحجر الذي يحمله اثنان، وهذه آيات بينات، والذي يرجح هذا أننا نجد أن مكان القدم في الحجر هي تعليمة مستوية؛ لأن الإنسان حين يضع رجلاً فإن للرجل بصمة خاصة، لكن المكان للقدمين في حجر إبراهيم مستوٍ. ولمن لا يتسع ذهنه أن اللَّه ألان له الحجر، فليتسع ذهنه إلى أن إبراهيم حفر بنفسه مكاناً للقدمين في الحجر[1].

إذن.. إما أن اللَّه أقرّ وأعان إبراهيم؛ لأن إبراهيم فكر أن يبني القواعد، ويرفعها أكثر مما تطول يداه، ولذلك أعانه اللَّه ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام هو الذي صمم مكان القدم فصارت له.

---

(١) قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

إعادة بناء الكعبة في عصر
إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

أوضح الحق لنا في قرآنه الكريم أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد استحق الإمامة بنجاحه فيما ابتلاه اللَّه من تكليفات، قام إبراهيم عليه السلام بأدائها وأتم القيام بها بإتقان وتمام محبا لتكليف اللَّه، ولذلك كافأ الحق سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام وجعله إماماً.

وأراد خليل الرحمن أن تستمر الإمامة في الأرض؛ لتكون الإمامة سمة على وجود خلق يتمسكون بمنهج اللَّه على طريق الوفاء والإكمال والإتمام، لكن الحق جل وعلا وهو أعلم بكل خلقه، عرف أن بعضاً من ذرية إبراهيم سيكونون على غير عهد اللَّه وسيخالفون المنهج، ولسوف يدَّعون لأنفسهم الأفضلية والتمايز على كل البشر لمجرد أنهم من نسل إبراهيم خليل الرحمن.

لذلك أخبر الحق جل وعلا إبراهيم خليل الرحمن أن عهده لا يناله الظالمون، ولهذا جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة].

إذن.. فهذه الآية دلت على أن اللَّه أنبأ إبراهيم من قديم الزمن على أن بعضاً من ذريته سيكون ظالماً، وما دام بعض ذرية إبراهيم سيكون ظالماً بالخروج عن منهج اللَّه، ويدعون لأنفسهم أنهم خير خلق اللَّه لمجرد أنهم ينتسبون لإبراهيم عليه السلام، ويدعون لأنفسهم أنهم شعب اللَّه المختار، وأنهم موطن النبوة، والإمامة تكون فيهم وحدهم، وكان هذا البعض من ذرية إبراهيم هم بنو إسرائيل؛ لذلك جاء القول الفصل من الحق: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لقد كان هذا القول الفصل إشعاراً بأن من ذرية إبراهيم من سيصير ظالماً، ولقد أوضحنا أن النبوة لها بنوة تختلف عن البنوة في سائر البشر، إن البنوة في البشر العاديين تعني الانتماء الدموي أو النسبي أو الجنسي، أما البنوة في الأنبياء فهي الانتماء للعقيدة والمنهج الذي يجيء به النبي المرسل من عند الحق سبحانه وتعالى، ولنا أن نعرف أن الانتماءات في ذلك الكون متعددة.

ومعنى الانتماء هو أن يحسب الإنسان نفسه على شيء، وهذا الشيء يطلب من الإنسان أن يسير على مقتضاه، فمثلاً: قد ينتمي الإنسان إلى الأرض، ولنا أن نعرف أن كلمة: «الوطنية» قد خرجت إلى الكون من أجل انتماء الإنسان إلى الأرض؛ لذلك يقول المصري مثلاً: «وطني مصر» وقد ينتمي الإنسان إلى الجنس فيقول الإسرائيلي: أنا من أبناء إسرائيل، وهذا يعني أنه يختص نفسه بمقولة أنه من أحفاد يعقوب عليه السلام بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وقد يقول العربي: أنا عربي. وهذا يعني أنه ينتمي إلى العروبة، ولنا أن نفرق بين انتماء الإسرائيلي إلى بنوة يعقوب ذلك أن الاحتفاظ بسلالة نقية عبر عصور طويلة أمر غاية في الاستحالة، أما الإنتماء للعروبة رغم أنه بدأ من سلالة إسماعيل عليه السلام، إلا أنه انتماء لا يضيق بساكن للمنطقة التي ينطق أهلها اللغة العربية.

وقد يكون الإنتماء إلى مذهب، ومثال ذلك: أن سكان البلاد الغربية تتبع حكوماتهم وأغلبيتهم النظام الرأسمالي، وسكان البلاد الشرقية الخاضعة لحكومات شيوعية ينتمون إلى هذا المذهب الشيوعي.

إذن.. فمعنى الإنتماء هو الجهة التي يحسب الإنسان نفسه عليها ليخدم قضيته، وليس عند اللَّه لون من الانتماء من تلك الأنواع، إن الانتماء المعترف به عند اللَّه هو الانتماء القيمي أي الانتماء لمنهج اللَّه، فالإسلام لا يفرق بين وطن ووطن، أو جنس وجنس، أو دم ودم. إن الإسلام يُعرف بالقيم التي يرتبط بها الإنسان أيّاً كان لونه وأيّاً كان جنسه، وأيّاً كان مذهبه، إن الإسلام انتماء قيمي.

إذن.. فقول الحق: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا القول يحدد موقع الإنتماء في البشر، وبعد ذلك أراد الحق أن يصفي أيضاً قضية بيت المقدس والقبلة، فأثبت الحق لنا أن بيت المقدس بيت حديث من إنشاء داود وسليمان، لكن الكعبة هي بيت من اختيار اللَّه، فأيهما إذن أولى في الإتجاه إليه؟ أنتجه إلى البيت القديم باختيار اللَّه، أم نتجه لبيت هو للَّه أيضاً، ولكنه باختيار خلق اللَّه؟!

إذن.. فالقضايا التي كان يتاجر بها اليهود المعاصرون لرسول اللَّه ﷺ على المؤمنين الأوائل في الإسلام، إنما كان الهدف منها أن يصرفوا المؤمنين بالإسلام عن دينهم، ولذلك أراد اللَّه أن يبطل هذه المتاجرة، لذلك نزل حكمه الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة]، البيت معناه يطلق على الدار وعلى المنزل؛ لأن الإنسان يخرج إلى العمل والسعي للرزق في الأرض

ثم يعود إلى البيت ليأوي إليه، وقد جعله اللَّه مثابة للناس ـ أي ليثوب الناس إليه ويرجعوا ـ لأنه بيت ربهم.

فإذا أفزعك شيء فاذهب إلى بيت رحمة ربك لتجد رحمة ربك في استقبالك؛ فيزيح عنك كل ما يمكن أن يتعبك في الحياة، وما دام الإنسان يثوب إلى اللَّه فلا بد أن يكون في أمن، وما دام الإنسان في بيت اللَّه فلا فزع، وقلنا: إن اللَّه قد جعل بيته آمناً فليس ذلك إخباراً منه لنا، ولكنه طلب من الحق إلى المؤمنين به أن يجعلوا البيت الحرام آمناً، فإن أطاعوا اللَّه جعلوا البيت آمناً، وإن لم يطيعوا اللَّه جعلوا الناس يفزعون فيه.

ونأتي إلى قول الحق: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ وهكذا كان الأمر الإلٰهي الصادر بأن نجعل من مقام إبراهيم خليل الرحمن مصلى، والمصلى معناه مكان الصلاة، والصلاة تطلق ويراد بها الدعاء[١]، وفي ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة] وهذه الآية الكريمة تتضمن التوجيه الصادر من اللَّه إلى الرسول الكريم أن يأخذ من أموال التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشح، وترفع درجاتهم عند اللَّه، وأن يدعو الرسول لهم بالخير والهداية، فدعاء الرسول تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب، واللَّه سميع للدعاء، عليم بالمخلصين في التوبة، وتطلق الصلاة أيضاً على الصلاة على رسول اللَّه ﷺ عندما نقول في التشهد: «اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد»[٢]، وتطلق الصلاة أيضاً على الصلاة الشرعية التي نعرفها جميعاً وهي التي نفتتحها بالتكبير ونختتمها بالتسليم وبشرائطها المخصوصة[٣]، وحين نأتي إلى المعنى العام في الصلاة، فإننا نقصد الصلاة الشرعية فهي تشمل دعاءً إلى اللَّه،

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مَن صلى عليَّ واحدةً، صلى اللَّه عليه عشراً». رواه مسلم [٤٠٨/ ٧٠] وأبو داود [١٥٣٠] واللفظ لهما، والترمذي [٤٨٥].

(٢) عن كعب بن عُجرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كماصليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد». رواه مسلم [٤٠٦/ ٦٦].

(٣) عن علي رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مفتاح الصلاة الطَّهور، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم». رواه أبو داود [٦١٨] وصححه الألباني.

وصلاةً على رسول اللَّه ﷺ وتشمل الشكل والمضمون، والمراد المخصوص بالصلاة الذي أراده اللَّه سبحانه وتعالى.

وقد يسأل أحد: ما معنى كلمة «مقَام»[١]؟ إن كلمة «مقَام» تأتي أحياناً مفتوحة الميم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وتأتي كلمة: «مُقَام» في أحيان أخرى مضمومة الميم كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، وقد نزلت هذه الآية في بعض من ضعاف النفوس والمنافقين الذين حاولوا أن يهربوا من مواجهة العدو، وكان ضعاف النفوس هؤلاء من أهل المدينة؛ لذلك ادّعوا أن بيوتهم عورة ولا بد من حراستها، وكان ذلك تغطية للهرب من المعركة[٢] ولنا أن نعرف أن «مقَام» المفتوحة الميم هي اسم مكان من قام، أما «مُقَام» المضمومة الميم فهي اسم مكان من أقام، وهكذا نفهم أن قول الحق: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ كان هذ القول مقصوداً به اسم مكان، مأخوذاً من الفعل قام. أي: ان الحق ينبهنا إلى أن المكان الذي قام إبراهيم عليه السلام عليه ليعيد بناء الكعبة هو المقصود بتلك الجملة، أي أن الحجر الذي نراه في الكعبة، وعليه أراد إبراهيم أن يرفع قواعد البيت الحرام، هذا الحجر يمكن الصلاة حوله وفيه، ونحن متجهون بوجوهنا إلى الكعبة، فالمسلمون الأوائل كانوا يتحرجون من الصلاة في هذا المكان؛ لأن المقام كان موجوداً بين المصلى وبين الكعبة، وكان الناس يتحرجون أن يقيموا الصلاة وبينهم وبين الكعبة شيء، لذلك كان هذا المكان يخلو من المصلين فلا يصلي فيه أحد، وهنا قال عمر بن الخطَّاب رضي اللَّه تعالى عنه لرسول اللَّه ﷺ: «ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى»؟ لقد أراد ابن الخطَّاب رضي اللَّه تعالى عنه أن تعم الصلاة كل المكان بحيث لا توجد جهة من جهات الكعبة إلا وفيها صلاة، وهنا أنزل الحق تبارك وتعالى هذا القول الحكيم: ﴿وَٱتَّخِذُواْ

---

(١) المَقَام والمُقَام: قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، وقرئ قوله تعالى: ﴿لا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا موضع لكم، وقرئ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالضم، أي: لا إقامة لكم. لسان العرب [١٣/ ٤٩٨].

(٢) يقول اللَّه تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول اللَّه ﷺ بين أظهرهم إنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم. . إلخ انظر تفسير ابن كثير [٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦].

﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وكان هذا القول الحكيم من المواضع التي وافق فيها القرآن الكريم عمر، وهناك أكثر من موقف وافق فيها القرآن عمر بن الخطّاب.

ها هو ذا ابن الخطّاب رضي اللّه تعالى عنه يقول لرسول اللّه ﷺ: «يا رسول اللّه إن من زوار بيتك البر والفاجر ألا أمرت نساءك بأن يحتجبن»؟ وينزل القرآن الكريم بآيات الحجاب، وهناك أكثر من موقف نزل فيه القرآن ليؤيد رأياً لعمر بن الخطّاب[(١)]، ونحن نلحظ أن الموافقات القرآنية لها ملحظ تشريعي، وعمر بن الخطّاب بشر غير مؤيد بالوحي، وكأن اللّه يريد أن يثبت للناس أن الفطرة إذا سلمت وإذا صفت، فإنها بذاتها تستطيع أن تهتدي إلى حكم اللّه، فكأن اللّه لم يكلفنا بأي شيء تعنتاً إنما هو يكلفنا بما يهدينا إلى الفطرة الصافية السليمة؛ ولكن ما أقل أن تصفو الفطرة.

إننا عندما نتحدث عن عدالة عمر وحزم عمر، إنما نتحدث عن الفطرة في قمة صفائها، ولقد أراد اللّه لنا أن يكون أمر الفطرة الصافية واضحاً في واحد من الخلفاء الراشدين، وأحد صحابة رسول اللّه ﷺ المؤيد بالوحي والذي اختاره اللّه أسوة حسنة، إنها فطرة إنسان مؤمن تستطيع أن تصفو وأن تصل إلى حكم اللّه، هكذا كان أمر اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم عليه السلام كان مكان قيام إبراهيم عليه السلام ببناء البيت[(٢)].

---

(١) عن أنس رضي اللّه تعالى عنه قال: قال عمر رضي اللّه تعالى عنه: وافقت اللّه في ثلاث ـ أو وافقني ربي في ثلاث ـ قلت: يا رسول اللّه! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى. وقلت: يا رسول اللّه يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل اللّه آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن اللّه رسوله ﷺ خيراً منكن حتى أتت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما في رسول اللّه ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل اللّه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥].

والترمذي مختصراً بلفظ: عن أنس رضي اللّه تعالى عنه قال: قال عمر بن الخطّاب: قلت يا رسول اللّه لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

(٢) يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً؛ ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب، في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا ـ واللّه أعلم ـ أمر =

---

(١) رواه البخاري [٤٤٨٣].

(٢) رواه الترمذي [٢٩٦٠] وصححه الألباني.

لقد أمر الحق إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا القواعد، وأن يطهرا البيت ولم يكن هذا الأمر قابلاً للتنفيذ، إلا بعد أن أوجد اللَّه البيت وبعد ذلك ترفع فيه القواعد. إن الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام ليرفع القواعد من البيت هذا هو المقام، ويريد اللَّه أن يلفتنا إلى أشياء هي أحداث قصة هذا المقام.

إن العلماء قد اختلفوا في بداية البيت الحرام بعضهم قال: إن البيت الحرام قد تم بناؤه في عهد إبراهيم عليه السلام، وبعضهم قال: إن البيت الحرام قد تم بناؤه في عهد آدم عليه السلام، وبعضهم قال: إن البيت الحرام قد أوجده اللَّه قبل آدم عليه السلام، ولننظر بالمنطق والاستقراء العقلي أي الآراء الثلاثة هو الصحيح(١).

إن العلماء الذين قالوا: إن البيت الحرام قد تم بناؤه في عهد إبراهيم عليه السلام لا بد أن نقول لهم: لقد أقمتم الدليل على رأيكم من قول الحق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

لا بد هنا أن نفرّق بين الرفع والبناء، إن البناء يستدعي ألا يوجد البيت ثم يتم بناؤه بعد ذلك. أما الرفع فهو الإعلاء والصعود، أي أن البيت الحرام كان موجوداً

= بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي اللَّه تعالى عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أُمِرْنَا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول اللَّه ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم أجمعين [١/ ١٦٢].

والحديث رواه الترمذي عن حذيفة بن اليمان [٣٦٦٢] عن ابن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه [٣٨٠٥]، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي، أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمر، وتمسكوا بعهد ابن مسعود». وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير [١١٤٤].

(١) وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا معمر عن قتادة قال: وضع اللَّه البيت مع آدم، أهبط اللَّه آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعاً فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى اللَّه عز وجل، فقال اللَّه: يا آدم إني قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي وتصلي عنده كما يُصلى عند عرشي، فانطلق إليه آدم فخرج ومد له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء. انظر تفسير ابن كثير [١/ ١٧٠].

قبل إبراهيم عليه السلام، وأقام البيت: أي جعل له ارتفاعاً، وصار بذلك له طول وعرض وارتفاع أي صار له حجم[(١)].

كأن الحق تبارك وتعالى حين يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾. كان المقصود والمفترض من ذلك القول: أن خليل الرحمٰن أقام الجدران فقط أما الطول والعرض فقد كانا موجودين قبل إبراهيم عليه السلام، وهكذا نعرف أن قواعد البيت قد انطمست بالسيل أو عوامل التعرية أو امتدادات الزمن، إن الحق أراد أن يُظهر لنا المكين: وهو مكان البيت الحرام أي المساحة التي أقام عليها إبراهيم جدران الكعبة، والحق يوضح لنا أن قواعد البيت كانت معلومة لإبراهيم عليه السلام، ونحن نعرف أن الناس تصلي في أي مكان في العالم وتتجه إلى المكين، وهو البيت الذي كان موجوداً قبل إبراهيم وأقام جدرانه إبراهيم عليه السلام. إن المكين هو مساحة البيت الحرام التي نتجه إليها عندما نقيم الصلاة؛ سواء كنا في بطن الأرض أو في الفضاء أو في نفق تحت الأرض أو على سطح الأرض. دليل آخر على أن المكين كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام، هذا الدليل هو غيرة سارة عندما لم تُطِقْ وجود هاجر معها بابنها إسماعيل، كانت سارة بغير ولد وكانت هاجر لها ولد هو إسماعيل، وكان من الطبيعي أن تغار سارة من هاجر، وأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إسماعيل إلى الكعبة إلى مكان البيت الحرام وهنا يقول الحق: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]، وهكذا نفهم أن إبراهيم أسكن ابنه إسماعيل وهاجر عند البيت الحرام، ولم يكن مكان البيت الحرام محدداً بالضبط لإبراهيم، إنه يعرف المنطقة لكنه لا يعرف المساحة ولا يعرف حدود المكين.

(١) يقال: ارتفع الشيء ارتفاعاً بنفسه إذا علا.

لسان العرب [٨/ ١٢٩].

obeikandl.com